الحجُّ نحوَ العدالة والسَّلام

أولاف فيكس(*)

فضيلةَ الإمامِ الأكبرِ، الأستاذُ الدكتور أحمد الطيب، شيخَ الجامع الأزهر، ورئيسَ مجلسِ حكماءِ المسلمين.

أصحابَ السعادةِ والفضيلةِ،

الرفاقُ الأعزاءُ،

الإخوةُ والأخواتُ،

يُسعدني ويُشرِّفُني أن أقوم بزيارتكم هنا في القاهرة، بعد أن كنَّا قد التقينا العامَ الماضيَ في مقرِّ المركز المسكوني لمجلس الكنائس العالمي في جنيف، سويسرا.

أشكرُكم على إتاحة هذه الفرصةِ؛ لكي نلتقيَ ونتبادلَ فيها أكثرَ من وجهة نظرٍ لمجلس الكنائسِ العالَمي، الذي يُمثِّل (٣٤٨) كنيسةً في (١١٠) دولة، وأكثرَ من نصف مليار مؤمن.

إن مجلس الكنائس العالمي -مِثلكم ومِثل مؤسسة الأزهر الشريف التي تمثِّلونها ومجلس حكماء المسلمين الذي تتولَّون رئاسته- يَعتبِرُ أن بناءَ السَّلام جزءٌ أساسيٌّ من رسالة القادة الدينيين والمؤسسات الدينية.

إن المحور السائد الذي نسعى في إطارِه في الوقتِ الراهنِ إلى أداء عملنا ورسالتنا هو الحجُّ نحوَ العدالة والسَّلام، واستخدامُنا لهذه العبارة له عدة أسبابٌ، منها أن أهمية الحج أمرٌ متعارَفٌ عليه في العديد من الأديانِ، ونعلم علم اليقين أنه في كلِّ

من المسيحية والإسلام ما نتعلَّمه عن أنفسنا وعالَمِنا من خلال أدائنا للحج أنه يُمكِّننا من التقرب إلى اللهَّ.

واستخدمنا أيضًا عبارة الحج بسبب معاني الانفتاحِ والدعوةِ والحركةِ التي تحمِلُها؛ فيُمكننا أن ندعوَ كل من له نوايا طيبةٌ إلى السير والعمل معًا من أجل تحقيق العدالة والسَّلام في المناطق التي تعيشُ ظروفًا صعبةً في عالَمِنا.

وعندما نتكلم عن الحج، فإننا نتكلم عن رحلةٍ تجمع ما نُسمِّيه بالقادة الدينيين مع القاعدة الشعبية، وكلٌّ منهم له دورٌ حيويٌّ يؤديه في هذه الرحلة المشتركة، وجزء من طبيعة الحج هو أن يعتمد كلٌّ منا على مساعدة الآخر.

ونحن هنا اليومَ في اجتماعنا هذا، سَيَرانا العالم كقادة دينيين، لدينا جميعا أدوارٌ حيويةٌ نؤديها، أدوارٌ قد تُفقِدُنا أحيانا شعبيتنا في المجتمعاتِ التي نعيش فيها عند مواجهتِنا لبعض القُوىٰ المدمِّرة التي يبدو أنها موجودةٌ اليومَ.

ولكن من الأهمية بمكانٍ أيضا ألا يُنظَرَ إلينا وكأننا بعيدون عن الشواغل الملحَّة للقاعدة الشعبية في مجتمعاتنا، وعن الناسِ الذين لا يتمتعون بالامتيازات التي يتمتع بها الكثيرون منا.

لا ينبغي أن نناقشَ الأرقام اليومَ، لكنه يجب أن ندركَ أن المسيحيين والمسلمين معًا يمثِّلون حوالَي نصفِ سكان العالم؛ لذلك فإننا لا نتحدثُ هنا عن أنفسنا فحسبُ، بل نتحدثُ عن الإنسانية بطرقٍ عديدةٍ.

هذه هي النقطة الأساسية الأُولىٰ التي أودُّ أن أعبِّر عنها: علينا أن نتناول هذه القضايا من منظورٍ عقائديٍّ أساسيٍّ.

ماذا يَعني اليومَ الإيمانُ باللهِ الواحدِ الذي خلق الإنسانية الواحدة؟ وما هي آثارُ ذلك في عصرنا هذا؟

بالتأكيد، لا ينبغي أبدًا أن نؤمنَ بإلهٍ واحدٍ ولا نعتبرُ سوىٰ جزء من البشر – كأخواتنا وإخوتنا– نهتمُّ بحالهم، ونُقدِّمُ لهم نفس الحقوق التي نتمتع بها أنفسُنا. ولأننا مسئولون أمام اللهَّ، علينا أن نرىٰ كيف يُمكن أن يصبح بذلك كلُّ إنسان مسؤولًا، هذه هي مسئوليتنا المتبادلة تجاه بعضِنا البعضِ، تجاه كل إنسان، أيًّا كان إيماننا أو عدم إيماننا.

أعتقد أن هذه الفكرة مُهمَّةٌ جدًّا؛ أن نعمل معًا نحو المساواة في المواطنة، والمواطنة ليست مجرَّدَ مبدأ سياسي أو قانوني؛ بل هي أيضًا مبدأٌ يعبر عن عمق إيماننا في اللهَّ الواحد الذي خلق إنسانية واحدة.

ونرىٰ اليوم بوضوحٍ وبطرُقٍ عديدةٍ أن هذا المعتقدَ ليس مشتركًا، ولا حتىٰ داخل مجتمعنا المسيحي، إيماننا المسيحي يُستخدم أيضًا لاستقطاب العالَمِ، واستقطاب الناس، بل يُستغَلُّ أحيانًا أيضًا للتمييز بين الناس، مرارًا وتَكرارًا، حتىٰ داخل المجتمع المسيحي.

ونحن -ضمن مجلس الكنائس العالمي- أنشأنا منذ عام ١٩٧١م مكتبًا للعَلاقاتِ بين الأديان، وقد تطوَّرَ هذا الأمرُ ليصبح له بُعدًا هامًّا لعملنا من أجل الوحدة والعدالة والسَّلام.

عندما ندعو كنائسنا وجميعَ الذين يريدون الانضمام إلينا ولحجِّنا من أجل العدالة والسَّلام، نريد أن نُعرِبَ عما نعتقد أنه جدول أعمال مشترك، لاسيما لهذا اليوم أيضًا.

اسمحوا لي أن أقدِّم لكم بعض الأمثلة الملموسة من عملنا اليومَ الذي يوضِّحُ كيف نحاول تَناوُلَ ذلك بطريقةٍ عمليةٍ، استنادًا إلى حديثنا العام الماضي في جنيف، أثرتُ فكرة «المواطنة» في ضوء تأمُّلاتنا اللاهوتية في حديثٍ جانبيٍّ في مجلس حقوق الإنسان الذي انعقد قبل شهرٍ، حيث كنا معًا لمناقشة التعايش الإسلاميِّ المسيحيِّ بالتحديد، وكنت قد أدنتُ التعبئة العسكرية الجارية في هذه المنطقة، وغيرها من الأحداث الجارية على الساحةِ ذاتِ الصلة بالدين في هذا الصدد.

أما فيما يتعلق بالنقطة الثانية التي أودُّ أن أتناولَها، فقد قمتُ في شهر يناير بترؤُّسِ مجموعةٍ من قادة الكنائس من مُختلِفِ أنحاء العالَمِ، والسفر إلى العراق لزيارة كلٍّ من القيادة المسيحية وقيادة الأديان الأخرى، ولاسيما الدينُ الإسلاميُّ، فضلًا عن القيادةِ السياسيةِ في بغداد وأربيل.

وقد حلَّلنا كثيرًا من أبعاد آثارِ المآسي التي حلَّت بهذا البلد، وبعض هذه المآسي لم ينشأ فقط في السنواتِ الأخيرةِ من العنف، والعنف الشديد، بل أيضًا في الحرب

التي بدأت عام ٢٠٠٣م ضدَّ مسيحية موحدة تحتجُّ على فكرة الغزو كوسيلة لحلِّ مشكلة سياسية وطنية، وتنبَّأنا بعد ذلك بحدوث ما قد تحقق للأسف، وكان من بين الآثار الأُولى لهذا الغزو أن الطوائف المسيحية ستُصبح إحدى الضحايا.

لا يوجدُ اليومَ في العراق سوى ما يَقرُبُ من عُشْرِ المسيحيين الذين كانوا يعيشون هناك قبل ٣٠ عامًا، ومن الأهمية بمكانٍ بالنسبة لنا أن نزورَهم، وأن نكون جزءًا من حياتهم، وقد قُدِّمَت لنا من طرفهم -ومن طرف الآخرين الذين تحدثنا إليهم- أمثلةٌ كثيرةٌ عن أن هناك فرصةً سانحةً الآنَ لإيجاد وسيلة لإعادة بناء العراق كدولة تجمع شعبًا متعدِّدَ الأديان، ويتعيَّن على المجتمع الدولي أن يغتنمَ هذه الفرصةَ، بعد تحرير الموصل وغيرها من المدنِ؛ ليبدأ الآنَ ببناء هذا المجتمعِ الآمنِ.

وعَلِمنا أن هناك حاجةً إلى إيلاء الاهتمام لما يُدرَّسُ في المدارس عن بعضها البعض، عندما سألنا عن المناهج الدراسية في العراق، لم تذكر العديدُ من الكتب المدرسية الآخرين وتاريخَهم في البلاد، ولم يكن هناك ما يُدرَّسُ في هذه الكتب عن الوجود المسيحي على مرِّ القرون، وهذه بالطبع خطوةٌ أُولى أساسيةٌ لتحليل وقَبول مواطنة الآخرين، وأنهم موجودون، لا كأقليات فحسبُ، بل كأشخاص ينتمون إلى تلك الأرض.

وعبارة «الأقليات» يمكن أن تكون عبارةً مُلتبِسةً؛ لأنها قد تعطي فعلًا معنىٰ عدم الانتماء، إنها ليست مجرد قضية أرقام؛ لذلك يجب أن نكون حَذِرينَ، ولا نستخدم هذه العبارة في كل وقت، ويجب أيضًا أن نستخدم عبارة «المجتمعات».

والمثال الثالث الذي أودُّ أن أذكره ليس من هذه المنطقة من العالم وإنما من نيجيريا، بالاشتراك مع ممثلين مسلمين بقيادتي وقيادة الأمير غازي وغيرهم من القادة المسيحيين، قمنا مؤخرًا بزيارة نيجيريا، وبخاصةٍ الجزء الشمالي من هذا البلد، وذلك للاستماع إلىٰ ضحايا العنف الذي يُرتكَبُ باسم الدين في تلك المنطقة من العالم.

وكانت إحدىٰ نتائج الزيارة هي أننا أنشأنا معهدًا مشتركًا في «كادونا»، وهي نقطة ساخنة للعنف القائم علىٰ أساسٍ دينيٍّ في نيجيريا، وما هو فريدٌ من نوعه بشأن هذا المركز هو أنه مركزٌ يشترك في إدارته مناصفةً المسلمون والمسيحيون، وأن المجموعات الدولية والمنظمات المحلية ملتزمةٌ بدعمه وتطويره، ويسُرُّنا أن يكون معنا في وفدنا القس «ووشيشي» الذي أدَّىٰ دورًا حيويًّا في تطويره.

وينبغي أن يجتمع الناسُ في هذا المركز -المسلمون والمسيحيون- للاستماع إلىٰ نفس القصص، ومساعدة الضحايا، وإقامة مشاريع جديدة، ولاسيما بين الشباب، بشأن العيش معًا.

وعندما فتحنا هذا المركزَ خلال العام الماضي، قال حاكم مدينة «كادونا»: إن هذه الخطوة تعتبر بصيصًا من الأمل في هذا البلد، وقد حان الوقتُ لترك هذا الخطاب

وراء ظهورنا، والمتمثل في تحديد هُوِيَّتِنا من خلال انتماءنا الديني، مُضيفًا أنه يتعين علىٰ سكان «كادونا» ونيجيريا عمومًا القولُ بأننا جميعًا ننتمي إلىٰ نيجيريا، دون القول بأننا مسلمون أو مسيحيون، وقد حان الوقتُ لنصبح بشرًا ننتمي إلىٰ الإنسانية، أو مواطنين في هذه المدينة، وفي هذا البلد قبل أن نعرِّف أنفسَنا من خلال انتمائنا لأيِّ مجموعة دينية.

أظن أن هذا الخطاب موجَّهٌ للجميع، هذا مع العلم أن مجلس الكنائس العالَمي يواصلُ العمل بشكلٍ استباقيٍّ لدعم أنشطة هذا المركزِ، وقد زار العديدُ منا المركز من جديد قبل شهر مضىٰ، وأنا أعلمُ أن الدوافع التي تحفِّزنا للحوار الذي أقمناه معكم بصفتكم تمثلون مجلس حكماء المسلمين، هي إيجاد مشاريعَ عمليةٍ وملموسةٍ للعمل معًا؛ للتعبير عن إصرارنا لإحداث تغيير في عالَمِنا.

وسأكون ممتنًّا لكم -معاليَ الأستاذ الدكتور أحمد الطيب- إذا ما كان بوُسعِ مجلس حكماء المسلمين التفكيرُ في التعاون معنا في هذا المشروع المهم؛ حيث إن مشاركةَ جهةٍ رفيعةِ المستوىٰ ومرموقةٍ مِثلِ مجلس حكماء المسلمين تشاركنا من خلال دعمِ ومؤازرةِ العمل في هذا المركز -ستكونُ لا محالة ذاتَ وقع كبير.

واسمحوا لي بأن أختتمَ كلمتي هذه بالقول بأن هذه المشاكل ليست الوحيدةَ التي نواجهُها في العالَمِ؛ ففي بلدي -النرويج- وفي مناطقَ أخرىٰ في أوروبا، نلاحظ أن مفهوم المواطنة الذي يجمعُ بين المواطنين ويُشكِّلُ أحدَ أسسِ الحقوق القانونية -أضحىٰ يواجهُ تحدياتٍ من طرف مجموعات تستند علىٰ أفكار شعبوية، تقوم علىٰ

الخوف من الآخر، والإقصاء، والقول بأن الآخرين لا ينتمون لهذا المكان؛ فالمسألةُ إنما هي مسألة كيفية فهمِنا للآخرين بصفتنا من بني البشر، وتقاسمِ حقوق الإنسان ذاتها حسَبَ ما أعلنَّاه سابقًا كأفرادٍ ينتمون إلى دولةٍ تقومُ على أساسِ المواطنةِ.

كما يتعين علينا التعبيرُ عن إحساسنا هذا لتجسيد مفهوم «الإنسانية المشتركة» من أجل اللاجئين، فهمٌ أناسٌ ينتمون إلى البشرية، وأُجبروا على مغادرة بلادهم خوفًا على حياتهم من أجلِ البقاء على الحياة والعيش.

ونحن لدينا إحساسٌ بالعار عندما نشاهد بلدانًا تقوم بالتمييز بين اللاجئين بسببِ انتمائهم الديني، والقول بأنهم غيرُ مرغوبٍ فيهم لأنهم مسلمون، لدينا إحساسٌ بالعار، ونأمُلُ ألَّا نشاهدَ مِثلَ هذه الحالة في أماكنَ أخرى في أوروبا أو في العالَمِ باسم ديننا أو باسم ديانات أخرى.

فالعالَمُ الذي نعيشُ فيه يتغيرُ بأشكال عديدة، شأنُه في ذلك شأنُ الديانات، ورحلةُ الحجِّ من أجل تحقيق العدل والسَّلام هي الرحلةُ التي تُعتبرُ القوةَ الدافعةَ لعمل مجلس الكنائس العالمي، وكذلك تعكسُ نظرتَنا في الوقت الراهن، وهي رحلةٌ – نعتقد بصفتنا من المسيحيين– تدعو كلَّ الشعوب ذاتِ النية الحسنة للمشاركة فيها.

لدينا أصواتٌ مختلفةٌ وتجارِبُ عديدةٌ في مجلس الكنائس العالَمي، وهذه نعمةٌ من النعم الربانية نرغب بأن نتقاسمها مع الآخرين.

نشكرُ اللهَّ الذي منحنا هذه الفرصة لمشاركة بعضِنا البعضَ، وهذا يعتبرُ دليلًا ساطعًا على وجود الأمل المشترك بيننا، للعيش في المستقبل معًا، في إطار التنوع في هذا البلد، وفي هذه المنطقة في العالَمِ.

ونسألُ اللهَّ الرحيم أن (ينزل علينا رحمته من السماء من علياء الفجر تسطع فوقنا) (لوقا، ١: ٧٨).